السُّكُون دَحْضٌ مَزِلَّةٌ

أم البراء

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتمّ علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا، وبعد:

فرحم الله الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، حيث قال:

إنّ الجَمَاعَةَ حَبْلُ اللهِ فَاعْتَصِمُوا
بِهَا هِيَ العُرْوَةُ الوُثْقَى لِمَنْ دَانَا
اللهُ يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً
عَنْ دِينِنَا رَحْمَةً مِنْهُ وَرِضْوَانَا
لَوْلَا الأَئِمَّةُ لَمْ يَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ
وَكَانَ أَضْعَفُنَا نَهْبًا لِأَقْوَانَا

[ديوان ابن المبارك: ص٢٨]

وقال: «أعلم أنّي أرى أنّ الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقي الله على السنّة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا، وذهاب الإخوان، وقلّة الأعوان، وظهور البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حلّ بهذه الأمّة، من ذهاب العلماء وأهل السنّة، وظهور البدَع» [البدع والنهي عنها لابن وضاح: ٩٧].

فبعد الضياع والتيه الذي عشناه، وكثرة الفتن التي جعلت الحليم حيرانًا، وتَسَيُّد الأراذل، كان من أعظم النعم التي منّ الله بها على عباده، أن اصطفى منهم أمّة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن جعل فيهم مرشدًا من أهل السنّة، يأخذون منه العلم الصافي النابع من مشكاته، به يُعرف الحلال من الحرام، والحقّ من الباطل، والنافع من الضار. وكما قال الإمام الآجري ﷺ عن العلماء: «هُم سراج العِباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمّة، وينابيع الحكمة، وهُم غيظُ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحقّ، وتموت قلوب أهل الزيغ» [أخلاق العلماء للآجري: ص١٦-١٧].

إنّ إقامة الدين تبدأ من الاجتماع، والاجتماع على الحقّ هو من أوثق عرى الدين، والمسلم مأمور في المنشط والمكره بلزوم الجماعة عند وجودها، وعدم مخالفتها، خصوصًا عند ظهور الفتن، كما في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، قال: « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني، فقلتُ: يا رسول الله، إنّا كنّا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: نعم. قلتُ: وهل بعد هذا الشرّ من خير؟ قال: نعم، وفيه دخَن. قلتُ: وما دخنه؟ قال: قومٌ يهدون بغير هديي، تَعرف منهم وتُنكر. قلتُ: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟ قال: نعم، دعاةٌ إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلتُ: يا رسول الله، صِفهم لنا. فقال: هُم من جلدتنا، ويتكلّمون بألسنتنا. قلتُ: فما تأمرني إن أدركَني ذلك؟ قال: تلزَم جماعة المسلمين وإمامهم. قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفِرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» [صحيح البخاري: ٣٦٠٦]. فأمره النبي ﷺ بلزوم الجماعة والإمام، ومفارقة الفِرق الضالة.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنّه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة» [مسند الدارمي: ٢٥٧]، وقال إسحاق بن راهويه: «لو سألتَ الجهّال: من السّواد الأعظم؟ قالوا: جماعة الناس. ولا يعلمون أنّ الجماعة عالِم متمسّك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبِعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة» [حلية الأولياء للأصبهاني: ٢٣٨/٩]. ومع بُعدنا عن عهد النبوة وعصر السلف، وارتفاع العِلم، وكثرة الدجّالين، إلا أنّ الخير باقٍ في أمّتنا إلى قيام الساعة، كما قال الصادق المصدوق ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم، حتى يأتيَ أمرُ الله وهُم كذلك» [صحيح مسلم: ١٩٢٠].

روي عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينَها» [سنن أبي داود: ٤٢٩١]، والله عز وجل يختار من كل خلَف أعدلهم وأوثقهم لِحمل هذا الدين، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المُبطلين، وتأويل الجاهلين. وقد قامت هذه الدعوة المباركة منارة للمسلمين، وشوكة في حلوق المعاندين؛ إذ أنارت الدرب للحيارى التائهين، ولَقَّنَتْ لطالب الحقّ مسالك الحجة ودلائل المحجة، وقَمَعَتْ شبهات الضالين، وفَضَحَتْ أغراضهم الخسيسة الدنيئة، من كذب وتلفيق واستخفاف بعقول البسطاء، فلم يعُد يغترّ بهم إلا أصحاب الانحياز والتعصّب المقيت إلى جحفلهم البائس، وما أشبههم بصاحب مقولة: «كذاب ربيعة خير من صادق مضر»!

إنّ النعمة إن لم تُشكر وتُستعمل في مرضاة الله ﷻ، أوشكَ أن يُؤذن لها بالرحيل، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمن أنعَم الله عليه بنعمة فلم يشكرها عُذِّبَ بها.

والحمد لله، فبعد وضوح الطريق وما منّ الله به علينا من الهداية، يكون شُكر الله على هذه النعمة بالعمل للدين، ودعوة الناس إليه؛ فإنّ من علم الحقّ كان أولى الناس بالعمل به، وحِفظ العِلم يكون بالعمل به، كما كان الصحابة ﷺ يستعينون بالعمل على الحفظ، وحفظ الدين لا يتحقق إلا بإقامته والتضحية في سبيله. أما إذا استُعمل ذلك العلم في الشقاق، والجدال، والاستعلاء على الناس، ومماراة السفهاء، فهذا دليل على عدم الانتفاع به؛ فما لا ينفع يضرّ لا محالة، وبدلًا من أن يكون حجة لصاحبه، يكون حجة عليه، ويؤدي به حتمًا إلى الخُسران، والله المستعان.

إنّ معرفة الحقّ ليست هي نهاية الطريق، بل هي –على عكس ما يظنّه البعض– بدايته، والبدايات هي أصعب المراحل. إنّ من لا يسعى للعمل والنصرة، فيه من النفاق خصلة؛ لأنّ الجادّ تظهر منه النتائج، ولا بدّ أن يبرز فيه التغيير، ويأبى الله إلا فضح أهل النفاق، كما قال في السورة الفاضحة: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧].

إنّ المنهج النبوي هو دليلنا الشامل الذي ينبغي الأخذُ به والعضّ عليه بالنواجذ، فإن سار المسلم على نهج من سلف فسيصل بإذن الله. وكم رأينا من الجماعات التي تدّعي الاعتصام بالكتاب والسنّة، والرجوع إلى نهج الرعيل الأول، كلها آلت إلى القعود والركون إلى الدنيا بحجة «العهد المكي»، غير أنّ المرحلة المكية تمثّل أكبر نموذج لمعاناة القلة المسلمة المستضعفة بين الكثرة الكافرة، وهي مع ذلك قد خلّدتْ مواقفًا وعِبرًا وتجاربًا رسمَت مسارًا للأمة ينبغي لكل سالك السير على خطاه.

فهل رأينا أحدًا من هؤلاء الرعاديد الناعقين اليوم من واجه ما واجهه الصحابة في مكة من تعذيب ونكال، وصبرٍ على أذى أعداء الله؟ بل كل ما رأينا منهم هو تخذيل المسلمين، وتنفير الناس من الحقّ بتشويهه، ثم تحوّل بهم التراخي إلى القعود، ثم شيئًا فشيئًا إلى التخلي عن المشروع. والناظر في قصص الأنبياء وسيَر الصالحين، يعلم أنّ الدعوة إلى دين الله ليست بالراحة والقعود، بل بالعمل والإعداد، وربما كانت مرحلة الاستضعاف ما قبل القتال –المكية–، أصعب من مرحلة القتال والتمكين –المدنية–.

قيل للشافعي ﷺ: «يا أبا عبد الله، أيّما أفضل للرجُل: أن يمكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكَّن حتى يُبتلى؛ فإنّ الله ابتلى نوحًا وإبراهيمَ وموسى وعيسى ومحمدًا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلمّا صبروا مكَّنهم، فلا يظنّ أحد أنّه يخلُص من الألم البتّة» [الفوائد لابن القيم: ص٢٠٨]. وآيات الله تشهد لهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقد رأينا الكثير من أولئك المتقاعسين، ممّن بدأ متحمسًا بفكرة الإصلاح، ثم خارت مع الوقت قواه، وذهبَت كل أمانيه، حتى انسلخ كليًّا من الدين، والعياذ بالله.

فصرنا لا نتعجّب حين نرى من كان بالأمس القريب من غلاة الاجتنابية، صار اليوم يتحاكم إلى الطاغوت بدعوى الضرورة! ومن كان لا يُرسل أولاده إلى المدارس، ويشنّع عليها، صار يدرّس أطفال المشركين ويعينهم عليها! ومن كان يستتيب جماعته في كل موسم، ويكفّرهم على طريقة الخوارج، صار عاذريًّا! ومن كان يتّهم كل من يراه قد تبسّم في وجه مشرك، صار خادمًا لجنود الطاغوت، يعالجهم ويرقيهم بدعوى تأليف القلوب لقبول الدين، مع أنه لم ينوِ دعوتهم أبدًا!

قال الشيخ أبو همام فرّج الله عنه:

كَمْ ضَاعَ مِنْ دِينِ أُنَاسٍ مَيَّعَتْ
حَتَّى ارْتَخَتْ وَتَحَايَلَتْ وَمَعَاذِرُ
كَمْ خُطْوَةً نَحْوَ السُّفُولِ ضَيَّعَتْ
دِينًا تَلَاهَى مِثْلَهَا يَتَقَهْقَرُ
حَتَّى تَلَاشَتْ فِي الطَّرِيقِ قِوَاهُمُ
وَتَغَيَّرَ ذَاكَ المَسَارُ الأَطْهَرُ

_____ [من قصيدة: غرباء] _____

ثم صار بهم الحال إلى العمل بالمنسوخ من دين الله، ومنه: الكفّ عن القتال، وأعظمه: قصر الصلوات الرباعية بدعوى الخوف وعدم الاطمئنان في دار الكفر! ولا ندري من هذا الذي يزعم إقامة لواء الجهاد وهو يرى الاطمئنان خوفًا! وهذه أمثلة بسيطة لِما وصل إليه حال هؤلاء المتجاسرين، لكنها كفيلة ببيان كذب ادّعائهم، فلو كانوا صادقين لَمَا وصلوا إلى هذه الدرجة من التلوّن! وما خفي أعظم! وحالهم كما قال النبي ﷺ: «يُصبحُ الرجُل مؤمنًا ويُمسي كافرًا»، وقد وجَّه رسول الله ﷺ المؤمنين إلى العمل، فقال: «بادِروا بالأعمال فِتَنًا كقِطَعِ الليل المظلم، يُصبحُ الرجُل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، أو يُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا، يبيعُ دينه بعرَضٍ من الدنيا» [صحيح مسلم: ١١٨].

وهل يتصوّر عاقل بأن تكون الدعوة –خصوصًا في بدايتها– من السهولة بحال؟ لكنهم لمّا لم يجدوا من يصادمونهم، ورأوا أنفسهم غير قادرين على مجابهة الطواغيت، اتخَذوا أفراد جماعاتهم أعداء، وأفرغوا فيهم الكراهية التي في صدورهم بدلًا من استعمالها في حرب أعداء الله، فصار يتّهم بعضهم بعضًا، ويكفّر بعضهم بعضًا، ويمكر بعضهم ببعض، ولو وقع بلاء بفرد منهم، أو أُصيب ببأس من أعداء الله، تبرّؤوا منه وشمتوا فيه، بدلًا من نصرته والوقوف إلى جانبه.

وهُم أول من يحارب المسلمين إذا قامت لهم قائمة، حربًا أشدّ من حرب الطواغيت! وكلما شمّوا في جماعة روح الهمّة والعزيمة، أحسّوا بالخطر، وسارعوا إلى إسقاطها، وتشويه سمعتها، والافتراء عليها، ومحاولة إطفاء شعلتها! وهيهات هيهات؛ فما هي إلا محاولات يائسة لن تغيّر من قضاء الله شيئًا، والنصر حتمًا سيكون للصفوة المختارة القائمة بأمر الله. وهنا يتبيّن أنّ ما يقومون به في «مرحلتهم المكية»، يشبه إلى حد كبير ما كان يقوم به صناديد قريش ضد النبي ﷺ وصحابته في العهد المكي وما تلاه.

فقد انحرفوا عن نصرة الدين ليكونوا أعدى أعداء الدين، وفي صدورهم من الحسد والغل على المسلمين ما الله به عليم. وما ذكرته هنا عن حال هذه الجماعات ليس تحاملًا عليهم، بل هو واقع عاينّاه، فمن لم يعمل لدينه سينتهي به الحال في السعي وراء الحطام، وسينسلخ من الدين. ثم إذا رأى أنّ البساط قد سُحب من تحته، وأنّ الله قد استبدله بغيره، انقلب حسدًا بموالاة حزب الشيطان ومحاربة أولياء الرحمن.

يقول ابن القيم: «يُخبر سبحانه أنّ أهل السعادة هُم الذين عرفوا الحقّ واتّبعوه، وأهل الشقاوة هُم الذين جهلوا الحقّ وضلّوا عنه، أو علموه وخالفوه واتّبَعوا غيره. وينبغي أن يَعرف أنّ هاتين القوّتين لا تتعطّلان في القلب، بل إن استعمَل قوّته العلمية في معرفة الحقّ وإدراكه، وإلا استعمَلها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمَل قوّته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعمَلها في ضدّه، فالإنسان حارثٌ هَمّام بالطبع، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أصدَق الأسماء: حارث وهَمّام»، فالحارث: الكاسب العامل، والهَمّام: المريد. فإنّ النفس متحرّكة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون متصوَّرًا لها، متميّزًا عندها، فإن لم تتصوّر الحقّ وتطلبه وتريده، تصوّرتْ الباطل وطلبتْه وأرادتْه، ولا بدّ» [إغاثة اللهفان: ١/٢٥].

إنّ الواقع الذي نعيشه اليوم، قد سبق وسطّره المصنّفون في كتبهم الواردة عن أخبار الفتن وأشراط الساعة، وتمامًا كما جاء في الآثار، فإنّ الأزمة العقدية المعاصرة شاهدة على صدقه ﷺ، حيث قال: «... وتفترقُ أمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملّة، كلُّهم في النّار إلا ملّة واحدة...» [الترمذي: ٢٦٤١].

فينبغي للمسلم أن يأخذ بكل الأسباب الممكنة للاجتماع، وأن يعمل على إقامة صرح الجماعة ليل نهار، فهذا واجب كل مكلّف، أمّا النصر والتمكين فهو من عند الله، فإذا قضاه فلا مردّ له، وسيتحقّق لا محالة بإذن الله، سواء لنا أو لغيرنا من بعدنا، وما علينا إلا اتخاذ الأسباب المؤدّية إليه، وعلى العبد أن يُحسن ظنّه في مولاه، وأن يعلم أنّ هذا التأخير ما هو إلا من عند أنفسنا.

ليبدأ كل منّا بنفسه، ويحث إخوانه، ولا يطيل الانتظار؛ فالانتظار يؤدي إلى التأخر والقعود، فلنعزم على المضي قدمًا نحو تحقيق الغاية التي نحلم بها، ولا نخشَ في الله لومة لائم؛ فإنّ من صفات الداعية إلى الله أن تكون خشيته من الله وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]. ولنسارع الخطى إلى ربنا، كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، ولنستقِم على الطريق ولا نحيد عنه، فلمّا دعا موسى وهارون عليهما السلام على قومهما، قال لهما المولى عز وجل: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، فأمرَهما بالاستقامة على الرسالة والدعوة، وعدم الالتفات إلى الجهّال.

فكل مسلم مسؤول عن نفسه، ولا يتوقف بأسرِ شيخه أو توقف إخوانه، بل يحرّضهم على الاستمرار في الدعوة، فقد يكون سببًا لنهوضهم ونهوض الأمّة، وكلما جاهد نفسه، ازداد من الله قربًا وهداية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ولنترك القعود والتباطؤ لأصحاب «العهد المكي» الذين لا ندري متى ستنتهي عندهم تلك المرحلة وتزول صلاحيتها، وتنتقل بعد إلى مرحلة أكثر تطورًا، كانتقال الدعوة من السرية إلى الجهرية مثلًا، بل زادت تراجعًا إلى الوراء، والله المستعان. حتى إنهم قد يئسوا من أنفسهم، وأصبح أملهم معلّقًا بخروج المهدي، ولذلك صار انشغالهم في أخبار الملاحم أكثر من نشر التوحيد وترسيخ العقيدة! ولا يعلم هؤلاء المساكين أنّ المهدي مُصلِح للأمّة، ناصر لدين الله، وأنّى ينصر جماعة من المخذولين، ولو ظهر الآن لكانوا أول من يحاربه.

فلنصدق مع الله أولًا؛ فهو سبحانه لا يقبل العمل إلا إذا كان صالحًا خالصًا له وحده. قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذه الأمّة بالسّناء، والرّفعة، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب» [مسند أحمد: ٢١٢٢١].

ولنكن بإذن الله يدًا واحدة ضد أعدائنا المشركين، كما وصَف الله تعالى المؤمنين بالرحمة بينهم وبالشدّة على أعدائهم من الكفار والمنافقين، ولو كانوا أقرب الأقربين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يستعملنا ولا يستبدلنا، وأن يثبّتنا على الحقّ كما هدانا إليه، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.